جامعة باجي مختار- عنابة

كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم اللغة العربية وآدابها

ليسانس : السنة الثانية شعبة الدراسات الأدبية

مادة الحداثة في الأدب العربي : الطاهر رواينية

- قراءة أولية في بيان الحداثة لأدونيس :

يصدر أدونيس في بيان الحداثة عن رؤية علمانية ذات مرجعية غربية مفتونة بمنجزات الحداثة الأوروبية العلمية والتقنية ، وكذلك على مستوى الأنظمة السياسية والاجتماعية ، أسهمت في تكريس الحرية والديمقراطية والمواطنة ، وهو ما تفتقده المجتمعات العربية ، ونسي أن هذه الحداثة هي بالدرجة الأولى حداثة مادية شرسة تحالفت مع الاستعمار ، وانتجت الأسلحة المدمرة ، وشيأت العلاقات الإنسانية ، وبقدر ما احتفلت بالجسد في عريه ، حولته إلى سلعة في المزاد العلني ، واسهمت في اغتراب الإنسان ماديا وروحيا ، وهو ما دفع الإنسان الغربي منذ عشرينيات القرن الماضي إلى معاودة البحث عن خلاص روحي ممكن في فلسفات الشرق ذات المنزع الصوفي التعبدي ، يعيد للإنسان الغربي توازنه ، وبعد اقتناعه بشل الحداثة في تحقيق وعودها ، بدأ يبحث عن ما بعد الحداثة بكل نزوعاتها التهكمية الساخرة والمفارقة ، وقد جاء بيانه خارج زمن الحداثة بما يقارب النصف قرن من الزمن ، تغير خلاله كل شيء في الغرب وفي العالم العربي الذي بات يواجه استعمارا غربيا جديدا أكثر شراسة وعنفا ، تجلى ذلك في حرب الخليج الأولى والثانية ، وما تلاها من حروب مدمرة غذت الإرهاب وتزامنت مع الربيع العربي في المشرق والمغرب ، تسندها في ذلك التوجهات المفارقة لما بعد الحداثة . وهو في حديثه عن الحداثة الشعرية ينطلق من تجربته الإبداعية ذات النزوع الكشفي المعرفي الذي يتقاطع مع رؤيته الصوفية السوريالية ، ويدعو إلى توسيع هذا الأفق الكشفي المعرفي للكتابة الشعرية العربية ليكون عابرا للتاريخ العربي والإنساني ، كون التجربة الشعرية تجربة ذات أفق إنساني تسائل التاريخ من منظور الراهن المتحول من أجل " إعادة فهم الوجود ومساءلة الكينونة لتأسيس رؤية الاكتناه العميق "[1] للذات الشاعرة – كما يرى أدونيس - بنفسها بوصفها ذاتا وبوصف هذه الذات لغة وبوصف هذه اللغة أداة كشف ، وإفصاح وإيصال ، حيث تشكل الإحاطة المعرفية بالذات الشرط الأول لكتابة الحداثة ، تعبيرا عن الذات ، وعن العلاقة الخلاقة مع الآخر ، ، يقول أدونيس :" أحب هنا أن أعترف بأنني

كنت من بين من اخذوا بثقافة الغرب . غير أنني كنت كذلك بين الأوائل الذين ما لبثوا أن تجاوزوا ذلك ، وقد تسلحوا بوعي ومفهومات تمكنهم من أن يعيدوا قراءة موروثهم بنظرة جديدة ، وأن يحققوا استقلالهم الثقافي الذاتي " [2] ، وهذا الاستقلال الثقافي الذاتي هو الذي مكنه من خلال قراءته لشعراء الحداثة الفرنسيين من اكتشاف حداثة شعرية ومعرفية عربية متقدمة في التاريخ عن حداثة الغرب ، يقول :" أحب ان أعترف أيضا أنني لم أتعرف على الحداثة الشعرية العربية من داخل النظام الثقافي العربي السائد ، وأجهزته المعرفية . فقراءة بودلير هي التي غيرت معرفتي بأبي نواس ، وكشفت لي عن شعريته وحداثته ، وقراءة مالارميه هي التي أوضحت لي أسرار اللغة الشعرية وأبعادها الحديثة عند أبي تمام ، وقراءة رامبو ونرفال وبريتون هي التي قادتني إلى اكتشاف التجربة الصوفية – بفرادتها وبهائها ، وقراءة النقد الفرنسي الحديث هي التي دلتني على حداثة النظر النقدي عند الجرجاني ، خصوصا في كل ما يتعلق بالشعرية وخاصيتها اللغوية التعبيرية " [3] .

هذا الوعي بخصوصيات الذات الثقافية وبتجربتها الشعرية الحداثية المتقدمة تاريخيا ، على تجربة الغرب الحداثية ،هو الذي جعل أدونيس لا يشعر بأي مفارقة أو تناقض ، وهو يتحدث عن السبق التاريخي لتجربة الحداثة الشعرية العربية ، يقول :" ولست أجد أية مفارقة في قولي إن حداثة الغرب المتأخرة هي التي جعلتني أكتشف حداثتنا العربية المتقدمة ، فيما يتجاوز نظامنا الثقافي السياسي الحديث ، الذي أنشئ على مثال غربي " [4] ، وكأن ما حدث يعد طفرة في تاريخ الشعر العربي ، وهي بالنسبة لأدونيس تعد تجربة ورؤيا ، تفترض نشوء حقائق عن الأنسان والعالم جديدة لم يعرفها القدم ن ليست بحسب التوجه الصولي نقدا للقديم وإما خروج عليه ، وذلك لأن الحداثة في منظور أدونيس هي إنجاز ما لم يكن معروفا في الماضي من التجارب الشعرية التي لا تكتفي بخرق الجماليات القائمة ، وإما تسعى لبناء أفق مشكلي تساؤلي ، يحضر في صلبها سؤال الذات والكتابة في علاقاتها بالكينونة والوجود ، والسلطة ورموزها السياسية والثقافية والدينية ، وبالبنية التعبيرية في علاقتها بالجسد ، والرغبة والحلم والصبوة واللعب والعبث ، والمعنى والسر ، مشكلة كيمياء شعرية تسهم في خلخلة كل ما هو ثابت وساكن ، وتتموج داخل أفق بلا حدود .

ينطلق أدونيس من تصور وممارسة للحداثة الشعرية يتناقض مع كل ما رسخته الشعرية العربية من قيم جمالية وفلسفية ، يتمثل في " أولوية المجهول ، والخرق والتكسير ، والتيه ، واللامألوف ، واللامنطقي ، واللاعقلي " [5] ، ويذهب بعيدا في استقصاء المجهول في مقابل المعلوم الذي رسخته الشعرية العربية ، يلج عالم المكبوت العربي في علاقته بالذات وبالجسد وباللغة ، متحرا من كل الإكراهات ، حيث تصبح اللغة عنده أداة للكشف

والمعرفة ، وتجاوز الحدود ، وهو يرى أن هذه المعرفة متعذرة في المجتمع العربي ، وهي بالتالي نوع من المناجاة لا تتعدى الذات ، ولا تتحرر الذات حقا إلا إذا مارست المعرفة كشفا وإفصاحا بحرية كاملة ، ولا تكتب الذات حقيقتها إلا في مثل هذه المعرفة الحرة ، وهذه الحرية المعرفية (راجع بيان الحداثة) .

وهو في نقده لتجربة الحداثة العربية يتبنى منظورا مبالغا في سلبيته ، فهو يرى أننا نكتب عن الحداثة - هذا المفهوم المستعار من الغرب – وعن قيم الحداثة في تجلياتها في الثورة والاشتراكية والديمقراطية والحرية ، ولكن ليس لها وجود فعلى على مستوى الممارسة في المجتمعات العربية ، وهو رأي يعبر عن حقبة متجاوزة تاريخيا في أغلب المجمعات العربية التي تسعى علميا وتقنيا لولوج مجتمع المعرفة ، وهو في هذا التوجه يبالغ في جلد الذات ، وكأن الحداثة غربية أو لا تكون ، أي حداثة علمانية إلحادية ، تتعارض مع كل أصل ومع كل عقيدة ، وتستبدل الواحد/ الله بالمتعدد / الإنسان ، والهوية بالمواطنة ، والمعلوم بالمجهول ، والنحن بالأنا والذات ، والمرجعية بالخلق والإبداع ، والمقدس بالدنيوي ، واليقين بالشك والتساؤل والحيرة والغموض ، الانغلاق بالانفتاح واللانهائية ، الخضوع بالنقد والتمرد ، وتذهب بعيدا في ممارسة التأويل

- المراجع :

1- عبد العزيز بومسهولي ، الشعر والتأويل ، قراءة في شعر أدونيس ، إفريقيا الشرق ن الدار البيضاء ، 1988 ، ص 7 .
2- أدونيس ، الشعرية العربية ، دار الآداب ، ط 1 ، 1985 ، ص 86 .
3- المرجع نفسه ، ص 86 .
4- المرجع نفسه ، ص 87 .
5- عبد العزيز بومسهولي ، الشعر والتأويل ، ص 9 .

بيان الحداثة / أدونيس

ان القضية الأساسية في الحداثة لم تعد تكمن في كتابة الشعر وزنا أو نثرا، وإنما أصبحت تكمن في الأفق الكشفي- المعرفي الذي تؤسس له هذه الكتابة، داخل التاريخ العربي، من جهة، وخارجه- في تاريخ الإنسان المعاصر، من جهة ثانية.
إن مشكلية الحداثة الشعرية في اللغة العربية جزء جوهري من مشكلية المعرفة- بوصفها علاقة بين الإنسان والمجهول، ومن مشكلية العلم بوصفه علاقة بين الإنسان والطبيعة، ومن مشكلية التقنية بوصفها عملا وتطبيقا. وهي إلى ذلك وبفعل ذلك لا تنفصل عن مشكلية أعم ترتبط بوجود العرب ومصيرهم الحضاريين على السواء.
وفي هذا الأفق نرى أن معظم الكتابات السائدة عن الحداثة، ليس إلا تغييبا للمشكلات الحقيقية التي تطرحها تجربة الحداثة.
ليست الحداثة الشعرية من هذا المنظور مجرد بنى وتشكيلات كلامية، فهي تفترض بدئيا، معرفة الشاعر العربي نفسه بوصفه ذاتا، وبوصف هذه الذات لغة، ويوصف هذه اللغة أداة كشف، وإفصاح، وإيصال. هذه الإحاطة المعرفية بالذات، والتي هي الشرط الأول والبدهي لكتابة الحداثة تعبيرا عن الذات، إنما هي في الوقت نفس، الشرط الأول البدهي للعلاقة الخلاقة مع الآخر.
غير أن هذه المعرفة في المجتمع العربي ليست سهلة، بل أذهب إلى القول إنها، على العكس، شبه متعذرة، في أوضاعه القائمة. والممارسة هنا، إما أنها نوع من المناجاة لا تتعدى الذات، وإما أنها نوع من المداورة. ولا تتحرر الذات حقا إلا إذا مارست المعرفة، كشفا وإفصاحا، بحرية كاملة. ولا تكتب الذات حقيقتها إلا في مثل هذه المعرفة الحرة، وهذه الحرية المعرفية.
نستخدم جميعا في كلامنا على الشعر، اليوم عبارة الشعر العربي الحديث، والحداثة الشعرية العربية بيقين الواضع يده على الحقيقة، وباطمئنان، فمن أين يجيء هذا اليقين وهذا الاطمئنان؟ إن قيل لنا مثلا: إن "كلمتي "حديث" و "حداثة" استعارة من الآخر الأجنبي شأن كلمات وأشياء أخرى كثيرة، إن قيل إنهما عبارتان ألصقناهما على نتاجنا الشعري اليوم، بعد أن حملناهما الدلالات نفسها التي تحملهما عن ذلك الآخر الأجنبي، وأخذنا ننتقد ونقوم نتاجنا في ضوئهما، إن قيل لنا ذلك، فما يكون ردنا؟ واستطرادا، هل يكون شأننا مع هاتين العبارتين، كما هو شأننا، مع عبارات أخرى نعرفها جيدا، كمثل

الثورة والديموقراطية، والحرية والإشتراكية، وغيرها؟ نكتب عنها الكتب، ونقيم لها الندوات، والمهرجانات، وباسمها ندين، ونبرئ، نحكم ونحاكم، وليس لها مع ذلك وجود حي في المجتمع، ولا تمارس على أي مستوى. إنها موجودة على الورق وبين الشفاه، لا غير. كيف إذن نغامر في الكلام على قضية لم تبدأ بأن نطرح حولها السؤال المعرفي الضروري: هل ما يسمى بالحداثة في الشعر العربي حداثة حقا، وهل هذا الشعر الذي يوصف بالحديث حديث حقا؟ كيف نصف شعرا بأنه حديث إذا كان لا يسير في الأفق المشكلي التساؤلي الذي تفتحه كلمة ‘‘حديث’’ أو ‘‘حداثة’’ بمفهومها المعروف، سواء على صعيد الكينونة وجودا وعدما، أو على صعيد العلاقة بين الكلمة والشيء، أو على صعيد السلطة ورموزها في مختلف أنواعها،ومستوياتها وبخاصة غير السياسية، أو على صعيد البنية التعبيرية، أو على صعيد القارة شبه العذراء في الكتاب العربية، أو على صعيد البنية التعبيرية، أو على صعيد القارة شبه العذراء في الكتابة العربية، قارة الجسد، بأبعادها وأعماقها وتخومها- من الرغبة والحلم والصبوة واللعب والعبث والمعنى والسر، وهذه الكيمياء التي تخترق هذا كله وتتموج محيطا بلا حدود؟ أليس من الأوليات إذن أن نتحقق من وجود الشيء قبل أن نشرع بوصفه وتحليله؟

يتعذر فهم الظاهرة في الأعمال الكتابية التي ندعوها حديثة. إذا لم نفهم بنيتها الباطنة، وهذا ما يستلزم جلاء لما أسميه بالتباسات الحداثة في المجتمع العربي. منها على سبيل المثال: الالتباس التأويلي المرتبط بثقافة الوحي والذي يقيس الحياة والفكر والأدب على الوحي، فكما أنه لا تحديث في الوحي وهذا طبيعي، كذلك لا تحديث في هذه جميعا، وهذا أمر غير طبيعي. ومنها التباس الخصوصية والأصالة والأصل، وهل هذا الأخير في الشعر العربي والحياة العربية واحد أم متعدد؟ ومنها التباس الهوية ومفهوم الآخر، وهل الحداثة تطابق مع الهوية، وكيف يكون هذا التطابق؟ أم أن الحداثة انشقاق؟ وكيف؟ ولماذا؟

لنقم ببعض المقارنات بين الحداثة في الغرب وما نسميه الحداثة في المجتمع العربي، نشأت الحداثة في الغرب في تاريخ من التغير عبر الفلسفة والعلم والتقنية ونشأت الحداثة العربية في تاريخ من التأويل، تأويل لعلاقة الحياة والفكر بالوحي الديني وبالماضي إجمالا.

ومن هنا تنتج الفروقات التالية:

- الأولى، الغربية- مغامرة في المجهول، في ‘‘ما لم يعرف’’ والثانية، العربية – عودة إلى المعلوم.
- الأولى، تؤكد على الأنا- الذات، والثانية تؤكد على النحن- الأمة.
- الأولى، لا مرجعية لها إلا الإبداعية، والثانية، قائمة على المرجعية من كل نوع.
- الأولى، نوع من المناجاة، والثانية، صلاة إلى القبيلة أو الحزب أو الأيديولوجية.

- الأولى، تتحرك في عالم لا سيطرة فيه للمقدس وللرموز الدينية، عالم انتصر فيه الدنيوي، والثانية، تعيش في عالم لا سيطرة فيه إلا للمؤسسات والرموز الدينية.
- الأولى، تساؤل وشك، والثانية يقين وتسليم.
- الأولى، انفتاح ولا نهائية، والثانية مذهبية وانغلاق.
- الأولى، تتأسس على البعد النقدي والحركية، والثانية، تتأسس على بعد القبول والخضوع.
- الأولى، فرادات، والثاني، أنساق، الأولى، انفجار معرفي همشت فيه الرؤية الدينية، والثانية، هامش صغير في متن تسيطر عليه وتوجهه الرؤية الدينية.
- الأولى، تعدد واحتمالات، والثانية، واحدية، مبدأ وحيد مؤسس وحقيقة واحدة مطلقة.
- الأولى، تتحرك في عالم أمات مفهوم الله وأحيا الإنسان، والثانية، تتحرك في عالم الإنسان فيه هو الميت والله فيه هو وحده الحي.
- الأولى، تفترض في الذات، وفي من تخاطبه، الحيرة والغموض والشك، والثانية، لا تفترض في الذات، وفي من تخاطبه إلا طاقة الوضوح، والإيمان واليقين.
- الأولى، تصدر عن قيمة ترد إليها جميع القيم، قيمة تهيمن على وعي العصر وتوجهه، والثانية، ليست هامشا وحسب وإنما هي منبوذة أيضا ولا تعيش إلا بفضل التصدعات القائمة في المجتمع العربي.
- الأولى، دنيوة، والثانية، دينة.

(بيان الحداثة (أدونيس 1992